

1. مقدمة:

عَرَفَت منطقتنا "وادي سوف" عبر حقب من الزمن - أثناء فترة الاستعمار وقبلها وبعدها - الكثير من الأعلام والشخصيات التي كان لها كبير الأثر داخل المجتمع، سواء في الجانب التعليمي أو العلمي أو الخيري أو الدعوي أو الإصلاحي أو الجهادي...

وهؤلاء الأعلام أو تلك الشخصيات حقيق على الأجيال أن تتعرف عليهم، وتسجل آثارهم ومآثرهم، وتدوّن جهودهم ومسيرتهم؛ لأنها -أولا- صورة مشرقة من تاريخنا وتاريخ أسلافنا الذين قدموا أوقاتهم وجهودهم وأنفسهم وأرواحهم في سبيل خدمة المنطقة والبلد، كما أنها -ثانيا- تعدّ من تراثنا الذي يجب أن نحافظ عليه ونعتز به، وندونه لنبلغه للأجيال اللاحقة قبل أن تصبح المعلومة عزيزة نادرة نبحت عنها ولا نجد لها، فيضيع منا هذا التراث الكبير الذي سطره الآباء والأجداد.

ومن الشخصيات التي كان لها دور بارز ومشهود في منطقتنا أثناء الفترة الاستعمارية هو الشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - الذي يعد أحد رجالات العلم الذين تركوا أثرا كبيرا في التعليم القرآني والفقه والدعوة والإصلاح وتخريج الأجيال، وتوريث ذلك لتلامذته الذين ساروا على طريقه، وبعضهم ترك تلامذة كذلك... وهكذا استمر الجهد يتواصل وإلى اليوم.

فقد كان للشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - الكثير من الإنجازات والأعمال الدعوية والتعليمية والإصلاحية والخيرية - خاصة في بلدة الرباح؛ وبالذات في حي علي دربال - والتي لا تزال راسخة في القلوب والعقول وتشاهدها العيون، وعلى هذا أردنا أن نسهم في تسجيل ما تيسر من أعمال الشيخ وجهوده التي جعلناها موضوعا لمقالنا بعنوان: "الشيخ علي دربال وجهوده التعليمية والدعوية ببلدة الرباح".

وتكمن أهمية الموضوع في التعريف بالشيخ علي دربال، والتعرف على شخصيته وكتابه - ولو اليسير من - سيرته لثخّفت للأجيال، كما تدوّن أبرز جهود الشيخ التي بذلها في المجال التعليمي والدعوي، ما يجعل الموضوع من الأهمية بمكان في المحافظة على تاريخ منطقتنا وسير أعلامنا حتى لا تضيع آثارهم، وفي ذات الوقت يتم التواصل والتوارث بين الأجيال.

ولذا فإن بحثنا يهدف للمساهمة في التعريف بأعلام المنطقة الذين كانت لهم أدوار بارزة في البناء الهادف والفعال، ومنهم الشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - وذلك لتحقيق الترابط بين الأجيال عن طريق عملية التوارث والتوريث، ولا يكون ذلك إلا بجمع تراث منطقتنا في مختلف المجالات والتعريف به وحفظه وتعليمه للأجيال.

ومما تم ذكره فإن إشكالية بحثنا تتمثل في التساؤل عن شخصية الشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - وعن جهوده التعليمية والدعوية التي قام بها طيلة حياته التي عاشها في منطقة الرباح، حيث إن الكثيرين ممن هم خارج المنطقة المذكورة لا يعرفون شيئا يذكر عن الشخصية وعن جهودها المتنوعة.

وتندرج ضمن هذه الإشكالية أسئلة فرعية، منها:
 من هو الشيخ علي دربال، ومن أي المناطق هو؟ وكيف قدم إلى وادي سوف؛ وبالتحديد لبلدة
 الرباح؟ وما هي المكانة التي حظي بها الشيخ في ببلدتنا الرباح؟ وما هي جهود الشيخ في التعليم القرآني
 والتعليم الشرعي والإمامة التي قام بها ببلدة الرباح؟ وما هو الجهد الذي بذله الشيخ في إصلاح وتربية
 الفرد والمجتمع؟

ولمعالجة الإشكالية والإجابة عن التساؤلات الفرعية التمسنا الخطة التالية:

أولاً - التعريف بالشيخ علي دربال.

ثانياً - جهود الشيخ في التعليم القرآني.

ثالثاً - جهود الشيخ في تعليم العلم الشرعي والإفتاء.

رابعاً - جهود الشيخ في الإمامة.

خامساً - جهود الشيخ في الإصلاح التربوي.

سادساً - جهود الشيخ في الإصلاح الاجتماعي.

2. أولاً - التعريف بالشيخ علي دربال

الشيخ علي دربال، هو علي بن محمد بن علي بن إبراهيم بن أحمد بن الشريف دربال، ولد خلال
 1860م¹ في نفطة بتونس²، أصله من الجريد ووالده محمد بن الشايبية وهو من أتباع إبراهيم الشريف³ شيخ
 الزاوية القادرية بنفطة⁴.

فهو الشيخ الفاضل المعروف بالمكانة والتقدير والاحترام بين الجميع، رجل من رجالات الدعوة
 والعلم في زمانه، جمع الشيخ رحمه الله تعالى بين العلم والفقه والأدب، وعزف بالعمل والجد والاجتهاد
 والصرامة في الحق، وكان مسموع الكلمة ويطلق عليه الجميع "سيدي علي" وما زال الكبار إلى اليوم
 يطلقون هذه التسمية.

نشأ الشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - في عائلة متواضعة تولي اهتمامها الأول للتعليم القرآني
 وتعلم مبادئ الدين الحنيف، فتعلّم على يد مجموعة من المشايخ في بلدته ومسقط رأسه، وكان والده
 رجلاً أمياً مع ذلك قدّم ابنه "علي" - وهو صغير السن يناهز السابعة من عمره، في حدود عام 1867م
 تقريباً - إلى الشيخ إبراهيم الشريف، قائلاً له: «هذا ولدك فعلمه». فعكف الشيخ علي دربال على العلم
 والدراسة، فحفظ القرآن الكريم وتمكّن من مختلف العلوم الدينية والأدبية وعمره يومها حوالي 25 سنة⁵.

وفي إحدى الزيارات التي قام بها الشيخ إبراهيم الشريف إلى بلدة الرباح⁶ طلب منه سكان البلدة أن
 يُرسل لهم من يعلمهم أمور الدين، ويحفظهم القرآن الكريم، ويشرف على الإمامة بمسجد الحي - الذي
 عُزف بعدها وإلى اليوم بمسجد علي دربال - فواعدهم خيرًا، ثم أرسل لهم الشيخ علي دربال - رحمه الله

تعالى - وقيل أن الذين أتوا بالشيخ إلى الرباح هم أولاد دبار، وهي العائلة المعروفة إلى الآن، وهي تسكن بالحي وبجوار المسجد، ومهما كان الأمر فقد وقى الشيخ إبراهيم الشريف بوعدده وأرسل لأهل الرباح تلميذه ومُريده الشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - وأوصى ابنه لمام (الإمام) والهاشمي الشريف⁷ بعد استقرارهم بوادي سوف بالشيخ علي دربال خيرا، فقال لهم: «اعتبروه أبا لكم، فهو بمثابة ابني؛ فإن كان عددكم ثمانية فهو تاسعكم، وإن كنتم تسعة فهو عاشركم».

ولهذا استقر الشيخ علي دربال بالرباح إلى جانب ابن شقيقه الشيخ لمام الشريف واستوطن جنوب الرباح في الحي الذي سمي باسمه، وهو حي علي دربال والذي دُفن به، وقد علّم فيه الناس القرآن الكريم ومبادئ الدين الحنيف والآداب والأخلاق، وكانت له زيارات سنوية إلى مسقط رأسه نفطة، وحتى بعد وفاة شيخه إبراهيم - رحمه الله تعالى - حيث كان يتعهده بالزيارة في كل سنة⁸.

وقد كان قدومه إلى منطقة الرباح بين 1880م/1885م - على تقديرات الراوين للقصة وتقدير عمره عند نهاية دراسته وميلاد أولاده - فرحب به سكانها أحسن ترحيب واتخذوه إماما ومرشدا وموجها ومعلما، فاكسب ثقتهم وودّهم وتقديرهم واحترامهم، فشجعهم على حفظ القرآن الكريم وتعلّم مبادئ الدين، وتعاون معهم على إقامة المسجد وأسموه باسمه، وبدأ الشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - بتحفيظ القرآن الكريم، فحفظ على يده العديد من الطلاب، منهم: ضيف حميدة، وعناد البشير، وعناد حميدة، وتامة محمد بن أحمد، ودبار خليفة، كما قام بتعليم الكبار مبادئ دينهم وخاصة الفقه.

وقد تزوج الشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - ثلاث نسوة، وهن حورية بنت الشريف، ولم تنجب له الأولاد، وقام الشيخ لمام بمساعدته على الزواج من امرأة عشية، وهي رقية محسن بنت الطالب علي محسن، وأنجبت له الزهرة، والمختار، وعائشة، وسعيدة، وعبد الحفيظ، والمعراج، أما المرأة الثالثة فهي فاطمة بنت عبد القادر هزبري التي كانت تعمل في الزاوية القادرية التي أسسها أبناء شيخه إبراهيم الشريف، وهم لمام والهاشمي، فزوجوه منها⁹، وأنجبت له إبراهيم ولده الثاني من الذكور بعد مختار.

فالشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - برز بدوره في المجتمع بالإصلاح بين الناس وبالفتوى وإمامة الناس، وكان ذا سمعة عالية وأخلاق مميزة ومحترم بين الجميع في حي علي دربال وفي بلدة الرباح والمناطق المجاورة لها، وكان له تأثير على عامة الناس، ولا يزال إلى اليوم عند من عاصروه أو عاصروا أولاده.

لذا يعد الشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - شخصية بارزة في منطقة وادي سوف عموما وفي الرباح خصوصا، وهو الأب الأول لعائلة دربال في المنطقة، ونظرا لبروز شخصيته سُمي على اسمه الحي "حي علي دربال" وسُمي على اسمه المسجد "مسجد علي دربال" وسُمي على اسمه أول مدرسة فُتحت بالحي "مدرسة علي دربال"¹⁰ والتي تغير اسمها مؤخرا لمدرسة ابن رشد، وهذا من الاعتداء التاريخي على

معالم المنطقة رغم مكانة ابن رشد رحمه الله تعالى.
وبعد جهد كبير وبذل وعطاء دام لسنوات توفى الشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - بالرباح، بحي
علي دربال سنة 1925م ودفن بجوار المسجد، ولا يزال ضريحه إلى اليوم على حاله في الجهة الشمالية
الشرقية للمسجد، فرحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.
وبعد هذه النبذة عن حياة الشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - نتقل للحديث عن جهوده في العليم
القرآني ببلدة الرباح في العنصر الموالي.

3. ثانيا - جهود الشيخ في التعليم القرآني

التعليم القرآني بوادي سوف عموما - ومنه في الرباح - خلال الفترة الاستعمارية على الرغم من
بساطة مناهجه وقلة الإمكانيات والتجهيزات إلا أنه كان له أثر كبير في الخروج بالأجيال السوفية من دائرة
الجهل القاتم ووضعها في سكة العلم والمعرفة، حيث تجسد هدفه في المحافظة على الشخصية الوطنية
بكل مقوماتها والتمسك بها وعلى رأسها الدين الإسلامي واللغة العربية من المحاولات المتكررة من طرف
السلطات الاستعمارية لطمس هوية المجتمع وإبعاده عن ثوابته وقيمه وأصالته، ودمجه في خدمة
المستعمر.

ومن هؤلاء المعلمين الذين كان لهم الأثر الكبير في التعليم القرآني بالمنطقة الشيخ علي دربال -
رحمه الله تعالى - الذي تعلم القرآن الكريم وحفظه ودرسه على شيخه إبراهيم الشريف، وتمرس في شتى
أنواع العلوم والفنون الشرعية، وعندما جاء للمنطقة عكف على التعليم القرآني مما يقارب ثلاثة عقود من
الزمن، وكان مركزه مسجد علي دربال - الذي ذكرناه قبل قليل - وقد تعلم وحفظ القرآن على يديه العديد
من الطلبة بالمنطقة، وعدد آخر من الذين تعلموا بعض سور القرآن أو أجزاء منه، ولهذا أغلب الأوائل من
حفظ القرآن في حي علي دربال كان للشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - الفضل الكبير في تعليمهم،
ونذكر على سبيل البيان والتوضيح بعض الطلبة من الحفظة:

- من تلاميذه ابنه المختار الذي تعلم القرآن على يد والده الشيخ علي حتى أتمه وأتقنه، وكان يعلمه
للناس ويصلي به صلاة والتراويح والجماعة، ويختمه كل سبعة أيام، وقد أكمل تعليمه الشرعي بتونس في
جامع الزيتونة، ثم رجع وخلف والده الشيخ علي على إمامة المسجد عندما عجز عن ذلك، واستخلف
بعض طلبته هو أيضا وبعض أفراد العائلة.

- ومن تلاميذه كذلك ابنه عبد الحفيظ الذي تعلم على يديه القرآن الكريم، وأصبح بعدها إماما
لمسجد حي الأمير عبد القادر، المسمى حاليا مسجد عثمان بن عفان، ويدعى مسجد العثامين، وتسمى
الجهة القديمة بالسوايح، وبعدها تولى إمامة مسجد البغازلية العتيق، وكان يؤدي مهنة الإمامة بالناس
ووظيفة التعليم القرآني بالمنطقة¹¹.

- ومن تلاميذه الذين حفظوا القرآن على يديه ابنه الأصغر المعراج، الذي ذهب إلى الزيتونة ثم تخرج منها، وعمل مدرسا في منطقة الرباح، ثم رجع لتونس وعمل مدرسا بزاوية سيدي المولدي بتوزر، ولم يتخلف هو أيضا عن وظيفة التعليم القرآني.

- ومن تلاميذه الذين تعلموا على يديه القرآن الكريم ضيف حميدة، ودبار خليفة، وعناد البشير، وعناد حميدة، وتامة محمد بن أحمد، وزواري أحمد البشير جدّي من جهة والدي... وغيرهم كثير.

والمقام لا يسمح للبسّط أكثر وقد كان لأبنائه دور كذلك في التعليم، ولهم طلبة ولطلبتهم طلبة كذلك، وعلى سبيل المثال ابنه المختار الذي هو أبرز أبنائه وقد تولى المهمة في مكانه كان له دور في التعليم القرآني، وحفظ على يديه تلاميذ كثر منهم ابنه عبد الكريم، وابن أخيه محي الدين، ومن خارج العائلة فرحات بشير، وتامة الهادي، والذيب المعراج، وذيب مسعود، وحميداتو لخضر، وبوذينه مسعود، وجلول تامة، وعلي ضيف¹²... وغيرهم .

وأبرز تلاميذ الشيخ المختار الذين حفظوا عليه القرآن وكان لهم دور بارز هو نعمسيدي الطالب إبراهيم حميداتو الذي خلف الشيخ مختار على إمامة المسجد وتعليم القرآن الكريم وبقي فيه إلى أن تقاعد في العشرية الثانية من هذا القرن¹³.

ومن أبرز تلاميذ الشيخ إبراهيم حميداتو، لخضر نسيب، محمد الصالح مومن، مبارك فرحات، وابنه محمد حميداتو... ومن أبرزهم تلميذه وابن أخته حذيفة دربال ابن عبد الرزاق دربال الذي تولى مهمة التعليم القرآني¹⁴ كذلك.

وكذلك من أبرز طلبته ابنه الأكبر حميداتو لعبيدي الذي يتولى الإمامة بمسجد الأنصار من الجهة الجنوبية من حي علي دربال قرب ثانوية الضيف محمد الأقرع، فهو يقوم إلى الآن بإمامة المصلين والتعليم القرآني بالمسجد المذكور¹⁵.

وكل الذي ذكرناه عن التعليم القرآني هو نتاج المدرسة القرآنية التي أسسها الشيخ علي دربال بالمسجد الذي يحمل اسمه إلى الآن، سواء من تخرج على يديه مباشرة أو من تلامذته على تلامذته أو تلامذة تلامذته لكن كلها في نفس المدرسة بنفس المنطقة وهي حي علي دربال.

ومع كل هذا لم يتوقف جهد الشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - عند التعليم القرآني الذي يعتبر المهمة الأولى التي من أجلها استدعي للمنطقة، بل وجد نفسه يقوم بمهام أخرى فرضتها الضرورة والحاجة، ومنها تعليم الناس أمور دينهم وإجابتهم عن تساؤلاتهم، وهو ما سنتناوله في العنصر الموالي.

4. ثالثا - جهود الشيخ في تعليم العلم الشرعي والإفتاء

عُرِفَ الشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - بطلبه للعلم ثم بعد ذلك تعليمه لعامة الناس وخاصتهم من الطلبة، فقد تلقى الشيخ علي دربال تعليمه الأول بنقطة على يد شيخه الشيخ إبراهيم الشريف، حيث

تلقي العلوم الشرعية والمبادئ الأساسية في الفقه والأصول والتفسير والعقيدة والسيرة وغيرها، ولما اشتد عوده أرسله شيخه إلى الجزائر واستقر به الحال معلماً ومربياً بحى علي دربال بالرباح يعلم الناس كتاب الله تعالى، ويعلمهم قضايا الشرع المختلفة وخاصة الفقه وتعليم القراءة والكتابة، فقد كانت الأمية في نهاية القرن التاسع عشر منتشرة بين الناس بسبب الاستعمار الفرنسي الذي أراد طمس الهوية واللغة العربية والدين قصد تجهيل المجتمع وتجهيل الشعب الجزائري، فكان للشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - الدور الكبير في تعليم الناس وتوعيتهم وتعريفهم بأحكام الصلاة والصيام والزكاة والحج وغيرها¹⁶.

فكان - رحمه الله تعالى - معلماً ومربياً ومدرساً ومصالحاً ومفتياً، وكان التعليم يومها يركز على الأمور البدائية كالتلقين المباشر وحلقات المسجد وخاصة بين الصلوات، وغيرها، ويركز على الفرائض والمبادئ الأساسية للدين، كالصلاة وما يتعلق بها من أحكام، والزكاة والصوم والحج وبعض المسائل في الأحوال الشخصية والمعاملات اليومية والمالية.. وقد أدى ما عليه إلى أن توفاه الله تعالى، ويكفي على كل ذلك المسجد الذي لا يزال إلى اليوم قائماً بدوره التعليمي والتربوي.

ونظراً لندرة العلماء في المنطقة وصعوبة الاتصال والتواصل مع العلماء خارج البلاد للظروف التي تحول دون ذلك، كان الناس يلجأون للأئمة من حولهم وخاصة من درس في الزيتونة يومها، ولعل هذا ما جعل من الشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - وابنه المختار - على وجه الخصوص - مقصد الناس في السؤال عن أمور دينهم وديانهم.

فقد كانوا من أبرز المشايخ في المنطقة الجنوبية كلها، أي منطقة الرباح والعقلة ولعقيلة والنخلة والخبنة، وميه ونسة وقراها، وواد العلندة... على غرار بعض المشايخ في الجهات الأخرى، كالشيخ البخاري عوينات من العقيلة، الشيخ حمادي الحسيني من النخلة، والشيخ الهادي عمامرة من الخبنة، فقد كان أمثال هؤلاء مراجع للفتوى ومصادر للإفتاء يقصدهم الناس لتعليمهم وللإجابة عن تساؤلاتهم¹⁷.

وقد كان الناس أميين والقضايا بسيطة ليست معقدة - كما هي في عصرنا اليوم - فكانت أغلب الفتاوى متعلقة بالصيام والصلاة والزكاة والحج وبعض القضايا في الأموال كالديون والتجارة والميراث، وبعض القضايا متعلقة بالوفاة كالعدة عند المرأة، وكذلك القضايا المتعلقة بالحيز والنفاس¹⁸ هذا ما كان يحتاجه الناس نظراً لبساطة المجتمع، كما كان أغلب الناس من البدو الرحل، ولهذا كانوا يستفتون حول قضايا الطهارة كالغسل والوضوء والتيمم... وأمور الفرائض كالصلاة والصيام والزكاة والحج... فيقدم لهم الشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - الفتاوى المناسبة مشافهة¹⁹.

كما كانت هناك بعض القضايا المتعلقة بالمعاملات بين الناس على قلتها، أي المعاملات في البيع والشراء، فقد كان الناس يستفتون في ذلك تحريماً للحلال وللبعد عن المعاملات المحرمة، والشيخ - رحمه الله تعالى - يقدم لهم الفتوى حسب ما عليه الناس في ذلك الوقت، وهو بذلك يعتبر مرجعاً ثقة، وفتواه مسموعة واجتهاداته لا ترد، فقد كانت له سمعة طيبة بين الناس²⁰.

وكانت أهم المراجع والكتب التي يأخذ منها الشيخ فتواه هي مراجع الفقه المالكي التي تعلم منها وعليها، كموطأ الإمام مالك عليه رحمة الله، وكذلك كتاب الرسالة لابن أبي زيد القيرواني فيعتبر مرجعاً مهماً في تلك الفترة، وكذلك كتاب الرسالة القشيرية وكذلك المدونة الكبرى في الفقه المالكي ... فقد كانت المراجع حينها قليلة وغير متوفرة.

وبعد ذلك برز آخرون من أبناء وحفدة الشيخ علي دربال في الفتوى من بينهم الشيخ المختار وعبد القادر بعد تخرجه من جامع الزيتونة وعمه المعراج كذلك وهو أحد علماء الزيتونة²¹ ... وغيرهم. وللبيان فإن فتاوى الشيخ ومن تولى المهمة من بعده من أبنائه وحفدته لم نعثر منها على شيء، وحتى حفدته لا يملكون شيئاً مخطوطاً بخط يده - رحمه الله تعالى - ولعل السبب في ذلك هو أن الفتاوى كانت مشافهة وآنية، ولذا حفظها الناس مختصرة موجزة ويرددونها بينهم ويتحججون بها ويستدلون بها، فيقولون سيدي علي قال... وسألنا سيدي علي عن كذا فقال... ونفس الشيء مع ابنه المختار، كما أن البساطة وقلة الحيلة وعدم إدراك قيمة وأهمية الكتابة لضعف الوعي وندرة المثقفين لم يُسجَل من تلك الفتاوى شيء، وإن كانت يسيرة ومختصرة.

5. رابعاً - جهود الشيخ في الإمامة

بدأ الشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - مهمة الإمامة منذ قدومه من تونس، وهو في العشرية الثالثة من عمره، فبدأ يؤم الناس في المسجد وهو عبارة عن زريبة من جريد بالقرب من مسجد علي دربال الحالي، وكان يجتمع فيه بعض سكان الحي فيصلي بهم الشيخ الصلوات الخمس ولسنوات عديدة تقارب الأربعين سنة حتى توفاه الله سنة 1925م.

وخلف الشيخ علي دربال في الإمامة ابنه الأكبر المختار، حيث بقي إماماً لمدة فاقت الخمسين سنة بمسجد علي دربال، وبقي المختار على هذا الحال حتى السبعينات من القرن الماضي 1975م.

كما يخلفه كذلك ابنه دربال محمد في صلاة الجمعة، كخطيب عند غيابه أو مرضه أو سفره، وكذلك من بين أبنائه الذين يخلفونه في صلاة الجمعة ابنه الأكبر عبد القادر، وعبد الصمد وعبد الوهاب²². كذلك من أبناء علي دربال وأبناء العائلة الشيخ عبد الحفيظ بن علي دربال الذي تولى الإمامة والخطابة بالمسجد العتيق بالبغازلية وبقي إماماً وخطيباً إلى أن توفاه الله تعالى على إثر نوبة مرضيه أصابته فالتحق بالرفيق الأعلى في ديسمبر 1981م²³.

وهكذا كان الشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - يؤدي إمامة المسجد، وأورث ذلك لأبنائه حتى خلفوه في حياته وبعد مماته، فرحمة الله عليهم جميعاً.

6. خامساً - جهود الشيخ في الإصلاح التربوي

خلال الحقبة الاستعمارية انتشرت البدع والخرافات داخل المجتمع، وقد عملت فرنسا جاهدة على

تفشي ذلك بين الناس حتى اعتقد بعضهم أنها من الدين ومن الإسلام، والذي ساعدها على ذلك الجهل والأمية التي تفشت كالنار في الهشيم.

وبقدوم علي دربال - رحمه الله تعالى - من تونس في أواخر القرن التاسع عشر بدأ إصلاحه التربوي في معالجة البدع والخرافات التي عليها الناس، معالجة تربوية بالتعليم وبمحرابة الجهل والأمية بين الناس، فاستطاع بحنكته وفهمه أن يبعد الكثير من الناس عن العديد من الخرافات ويرجعهم إلى الإسلام الصحيح، فالتفوا حوله يتعلمون منه القراءة والكتابة، وبذلك أخذ الجهل بالتناقص وحل مكانه العلم والأخلاق الحميدة، وهذا من فضل الله تعالى أولاً ثم بفضل دور الإصلاح التربوي الذي قام به وانتهجه الشيخ رحمه الله تعالى.

حيث كللت جهوده بمعالجة تلك الظاهرة ومحرابة الأمية والجهل وطمس بعض البدع، وبدأت المظاهر الإسلامية تظهر في المجتمع بتمسكهم بلغتهم، وأخذوا يبتعدون عن الخرافات والضلالات، مع إحياء الشعائر وبعض القيم في المناسبات²⁴ الدينية والوطنية، بل حتى في الحفلات والولائم يحاولون قدر استطاعتهم أن تكون وفق ما أمر الله تعالى به²⁵.

ولهذا استطاع علي دربال - رحمه الله تعالى - وأبناؤه وأحفاده من بعده أن يعلموا الناس تعاليم الدين السمحة حتى انتشرت القيم الأخلاقية والتربوية بينهم، كل ذلك عن طريق العلم والمعرفة من خلال المدارس التعليمية وحلق العلم والدروس والمواعظ والخطب المسجدية، وهذا كله يصب في دور الإصلاح التربوي الذي ترسخ داخل المجتمع في حي علي دربال خاصة وانتشر خارج البلدية بصفة عامة. كذلك مما ساعد علي دربال - رحمه الله تعالى - في تحقيق الإصلاح التربوي الاحتكاك المباشر بالمجتمع، والجلوس مع الناس ومخالطتهم، وتنظيم أحوالهم واستغلال المناسبات الدينية والوطنية والأعراس.. كل هذه المحطات واللقاءات كانت تستغل للتوعية ولتغيير المجتمع عن طريق الإرشاد والتوجيه.

كما أن الناس - في تلك الحقبة من الزمن - كانوا يجتمعون يوم الجمعة في المسجد، وبقرب المسجد، فكان علي دربال وأفراد عائلته يستغلون هذا التجمع لتوعية الناس تربوياً، وتوضيح الأفكار المغلوطة والمنحرفة، فاستطاعوا بذلك أن يعالجوا العديد من القضايا.

كذلك من الوسائل المتخذة الذهاب إلى التجمعات السكانية وزيارة البيوت والذهاب إلى الأماكن التي تقام فيها البدع والخرافات، فيقومون بنصح الناس، وتوجيههم قصد الابتعاد عنها، والناس - رغم الجهل والأمية إلا أنهم - يستمعون لتلك النصائح، وبهذه الثقة بين الناس والشيخ استطاع أن يربي بعض أفراد المجتمع²⁶.

كذلك من بين الوسائل في الإصلاح التربوي، تعليم الناس الأشعار والقصائد وتحفيظهم القرآن الكريم وتعليمهم أحاديث النبي ﷺ، كل هذه الأمور ساعدت في الإصلاح التربوي، فتغير مجموعة من أفراد المجتمع من فرد جاهل إلى متعلم، ومن فرد لا يعرف القراءة والكتابة إلى فرد متعلم يحسن الكتابة والقراءة، بل ومن فرد لا يعرف قراءة الرسالة ولا كتابتها إلى فرد يحسن كتابتها وقراءتها، ومن فرد يغلب عليه الطابع البدوي والأمي إلى فرد يحمل بعض الثقافة والتمدن.

7. سادسا - جهود الشيخ في الإصلاح الاجتماعي

نقصد به الإصلاح المتعلق بإصلاح ذات البين، فقد أدى علي دربال - رحمه الله تعالى - دورا بارزا في ذلك، حيث كانت العديد من الأعراف والعادات والتقاليد داخل المجتمع، وكذلك كانت بعض العصبية والحمية وخاصة مع نسبة الجهل الكبيرة واعتزاز الناس بانتمائهم وحبهم لأرزاقهم وأملأهم؛ كل ذلك كان يحدث أحيانا العديد من الخلافات والخصومات والنزاعات، وربما أدى ذلك لأكل الحقوق أو المقاطعة التي تدوم لسنوات طويلة، ناهيك عن حوادث الطلاق والاعتداء وغيرها من الظواهر التي تؤدي لتفكك المجتمع وتقطع أواصره وتضعف العلاقة بين أفراده.

ومن كل هذا التوصيف الذي ذكرناه وغيره - كما يحكي الأجداد ومن عاصروا تلك المرحلة - كان الناس يلجأون لأهل العلم ولأهل المساجد، وعلى هذا كان للشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - الدور البارز والظاهر الذي يعرفه الجمع في هذا الجانب - وقد واصل الأبناء والأحفاد على منواله - وفي هذا السبيل نذكر بعض الطرق والوسائل التي كان يقوم بها في سبيل هذا الإصلاح الاجتماعي:

فمن إصلاح ذات البين الذي كان يقوم به - رحمه الله تعالى - الإصلاح الأسري، كأن تأتي الزوجة تشتكي إليه زوجها فيقوم بالواجب ويصلح بين الزوجة وزوجها، وكذلك يأتي الابن يشتكي من ظلم والده فيستدعي الوالد ويقوم بالإصلاح والتصالح بينهم، وهكذا.

كما تكون بين الأخ وأخيه أو القريب وقريبه قضايا ومشاكل عائلية تصل أحيانا إلى قطيعة الرحم، فيستطيع علي دربال - رحمه الله تعالى - من خلال الثقة التي وضعت فيه من طرف الناس - أن يرد الأمور إلى طبيعتها، ويرجع القضايا إلى مجاريها بين الإخوة، أو بين العم والعم، أو ابن العم، أو بين الأرحام والأقارب .. وهكذا.

فكلما تقع مشكلة داخل الحي أو داخل المجتمع إلا وذهب أصحابها للشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - ليصلح بينهم وتعود الأمور لحالها وفق شرع الله تعالى وما يراه من حل مناسب لتلك المشكلة، لأن الجهل يجعل صلة الرحم ضعيفة لكن بالعلم تتقوى صلة الأرحام، فاستطاع بتوفيق من الله - عز وجل - أن تتقوى صلة الأرحام بين الناس عن طريق هذا الإصلاح الاجتماعي المبذول.

كذلك من بين مظاهر الإصلاح الاجتماعي الذي كان يقوم به الشيخ - رحمه الله تعالى - هو

الإشراف على عقود الزيجات، فالناس إذا تزوجوا حضر أهل العروس وأهل العريس مع وجود الطالب (الإمام)، فكان علي دربال - رحمه الله تعالى - يشرف على تلك العقود، وبالتالي يقرب وجهات النظر ويصلح العلاقات إذا توترت بعد ذلك بين الزوجين أو الأسرتين المتصاهرتين.

ولذا كان من بين الخصومات قضية الطلاق حيث كان الشيخ - رحمه الله تعالى - يتدخل ويدرس الموضوع ويراجع الأمور أولاً، وينظر في كيفية الطلاق وحال الزوجين والأولاد ثم يصلح ذلك، وبهذا التوجيه الاجتماعي يمكن أن تكون الزوجة مظلومة من طرف العممة أو أخت الزوج فبالطالي يتدخل - رحمه الله تعالى - في حالات الطلاق ويلم الشمل وترجع الأمور كما كانت.

كذلك من الإصلاح الاجتماعي هو معالجة الخصومات بين الناس، فكثيراً ما تقع خصومات بين الناس، وخاصة في القديم إبان وجود الاستعمار الفرنسي، فالناس لم تكن تذهب للمحاكم الفرنسية ويذهبون للطلبة (الأئمة) الجزائريين، فيأتون لعللي دربال باعتباره الطالب والمصلح لحل مشاكلهم.

وأغلب الخصومات يومها كانت على الميراث والأموال بالغيطان، فكانوا إذا حملوا ونقلوا التراب من الغيطان يرمنونه في العامي²⁷ عن طريق الأحمره والبهايم ويسمونها "الرملة" فهناك تكون الخصومة في الملاح²⁸، وكان هذا النوع من الخصومات كثير جداً، فيفض علي دربال - رحمه الله تعالى - الخصومة التي كانت تصل حتى للضرب أو التهديد بالقتل أحياناً؛ فيتدخل الشيخ ويعطي كل واحد حقه ونصيبه²⁹.

هكذا كان يصلح بين الناس، ويبين لهم أن الإسلام لا يرضى فساد ذات البين، فهو دين الرحمة والتسامح والمودة، فيلين قلوب الناس بذلك، ويستعطفهم، وتعد في سبيل ذلك الجلسات، ويخرجون لمكان النزاع، ويقربون وجهات النظر حتى يتم الإصلاح ويذهب النزاع وتتحول إلى عقد صلح، ويختم في بعض الأحيان ببعض التنازلات والتسامح، ويكرمهم أحد الأفراد بوجبة طعام تأليفاً للقلوب³⁰.

فقد كان دور الشيخ - رحمه الله تعالى - معلوماً في الإصلاح الاجتماعي يعرفه الجميع، سواء في عموم قضايا الناس أو في خاصتها، حيث كان موطن السر والثقة من جميع الأطراف.

8. الخاتمة:

وفي نهاية المقال نسجل ما يمكن تسجيله من النتائج:

- يعتبر الشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - من الشخصيات والأعلام العلمية والدينية في وادي سوف، وبالذات في الجهة الجنوبية منها، ومنها بلدة الرباح، ولهذا حظي الشيخ بمكانة عالية ومعروفة القدر في مجتمعنا ولا تزال إلى اليوم.

- الشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - يعتمد على المذهب المالكي في الفتاوى والأحكام، ومع ذلك لا نعثر له على تراث مخطوط في ذلك للأسباب التي ذكرناها في المقال وغيرها، ولعله لو تكاثفت الجهود لأمكن أن من تدوين بعضها ولو مشافهة ممن سمعها منه مباشرة أو عن طريق من رووها عنه.

- قام الشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - بأدوار بارزة ومختلفة المجالات داخل المجتمع والتي منها القيام بشؤون التعليم القرآني والعلم الشرعي والتوعية الدينية عموماً، كما قام بدور كبير في الإصلاح التربوي والاجتماعي بين الأفراد وبين العائلات داخل المجتمع.

- من بين الوسائل المتبعة التي انتهجتها الشيخ علي دربال - رحمه الله تعالى - في سبيل التعليم والتربية وتقويم المجتمع، هي وسيلة الاحتكاك المباشر بالمجتمع وعن طريق تنظيم الدروس واستغلال المناسبات الدينية والوطنية، وهدفها التوجيه والتوعية وإرشاد المجتمع.

- كما أن من النتائج التي توصلت لها أن الذاكرة الاجتماعية بدأت تفقد المعلومات المتعلقة بالشيخ - رحمه الله تعالى - حيث أصبحت المعلومة عزيزة ونادرة جداً.

ونختم النتائج بقولنا: أن مثل هذه الموضوعات تساهم في الحفاظ على تراثنا، وتسجل جهود أبناء منطقتنا قصد نشر الوعي والعلم، والمشاركة في البناء الحضاري والمعرفي عندنا، ومواصلة الجهد في البناء والتعمير، ومع كل ذلك فهي من الدراسات التي تُقدّم للأجيال القادمة لتعلقها بأعلامنا وشخصياتنا قصد التعرف عليهم وبيان دورهم في الحياة الاجتماعية والثقافية للمنطقة .. وبذلك نحْيي سيرتهم ومآثرهم ونحافظ على تراثهم قبل أن يُلقِي الزمن عليهم بظلاله وتغيب مآثرهم ويغيب جهدهم، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

9. الحواشي والإحالات:

- 1- شهادة الميلاد رقم: 00574 حررت بالرباح، في: 2020/05/31.
- 2- لقاء شخصي مع الحاج عبد الرحمان غنبازي بحي الزاوية بلدية الرباح يوم: 2020/2/3، على الساعة 12:30 زوالاً.
- 3- إبراهيم الشريف، هو إبراهيم بن أحمد بن محمد بن عطية بن إبراهيم بن محمد بن إسماعيل، يعود أصله إلى قبيلة البوازيد العربية الهلالية ولد بنفطة سنة 1813م، وتركه والده صغيراً وترى في أحضان جده من الأم وهو الولي الصالح سيدي بن ضيف الله، فورث عليه الصلاح وتعلم على يدَي الشيخ أبي بكر الشريف فأسس زاوية في نفطة " القادرية " 1835 وتوفي 1875 م، ينظر: دور عائلة الشيخ إبراهيم بن أحمد الشريف في حركة الوطنية الجزائرية، عاشور قمعون، مجلة البحوث والدراسات، عدد 3 بتاريخ جوان 2006، المركز الجامعي بالوادي، ص: 72 73 .
- 4- ينظر - بلدة الرباح الحياة الاجتماعية والثقافية خلال الفترة (1884 - 1962م)، روضة نصرات، مريم بوغزالة محمد وآخرون، مذكرة لنيل شهادة ليسانس في التاريخ، إشراف د.الجباري عثمان، جامعة الشهيد حمّ لخضر الوادي كلية العلوم الإنسانية الاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية (1884 - 1962م) - (2012-2013م) ص: 87 .
- 5- أوراق بخط اليد للأستاذ الدكتور علي غنابزية أستاذ بالجامعة الشهيد حمّ لخضر الوادي، سلمت يوم الأربعاء 2020/02/05م الساعة 10:30 صباحاً. وقد سجلها الأستاذ علي غنابزية على لسان مجموعة من الشيوخ الذين عاصروا الشيخ علي دربال في آخر حياته وتعلموا وعاشوا في المسجد مع أبنائه وتلامذته في نفس الحي وأغلب هؤلاء الشيوخ

توفاهم الله تعالى - وهم جبراني وأعرفهم شخصيا - فقد قام الأستاذ غنابزية بزيارة للمسجد وأجرى تلك المقابلة معهم أثناء تحضيره لبرنامج الإذاعي "بيوت عامرة" وقد صرح لي الأستاذ بذلك حين التقينا في مراسم إبرام عقد زواج بنفس المسجد في شهر ديسمبر 2019.

6 - الرباح هي أحد بلديات ولاية الوادي بالجزائر، فهي إحدى قرى عميش، تقع جنوب عميش وتبعد عن الوادي بنحو 10 كلم. وسميت بذلك لأن أول من سكنها يدعى رباح بن سعيد بن رباح، أشهر معالمها العمرانية: الزاوية القادرية - ضريح سيدي لمام. ينظر - موقع مجلة وادي سوف، عنوان: بلديات الوادي، 23 أبريل 2018، تم الإطلاع على الموقع ونقل المعلومة، الخميس 12 ربيع الأول 1442هـ / 29 أكتوبر 2020 الساعة، 12:30 زوالا، رابط الموقع: https://m-ouad-souf.blogspot.com/2018/04/blog-post_23.html

7- سكن أبناء الشيخ إبراهيم - أيضا - بالرباح وبالضبط بحي الزاوية الذي سمي على الزاوية التي لا تزال موجودة لليوم بالحي الذي كونه للتعليم القرآني، وتسمى "زاوية سيدي لمام"، وقربها مسجد الزاوية العتيق في الناحية الشرقية من الحي.

8 - برنامج بيوت عامرة، علي غنابزية، حصة خاصة بوادي سوف بمسجد علي دربال، إذاعة سوف بالوادي أرشيف 2011م.
9 - لقاء شخصي مع مبارك حشيفة بن عبد القادر القاطن بحي الزاوية بالرباح قرب زاوية سيدي شريف والمولود ب 1959 بالرباح عامل بالأحوال الشخصية بالبلدية، اللقاء في 2020/5/31، بمقر الفرع البلدي بحي البغازلية، على الساعة 11:50 صباحا.

10- بطاقة فنية سلمت من طرف مدير مؤسسة مدرسة ابن رشد، يوم 2020/3/9 على ساعة: 09:00 صباحا.

11 - لقاء شخصي مع الأستاذ البشير بوغزالة حمد بن محمد الطيب، مدير الطور الابتدائي متقاعد، وكان ينوب الشيخ عبد الحفيظ أحيانا في خطبة الجمعة والصلوات، وهو يؤذن بالمسجد إلى اليوم، يوم 2020/2/22، على الساعة 9:00 صباحا.

12 - لقاء شخصي مع الأستاذ عبد الرزاق دربال بن طاهر بن إبراهيم بن علي، أستاذ التعليم المتوسط ومتقاعد ويقوم بخطبة الجمعة أحيانا، ويؤدي الدروس الرمضانية بالمسجد ذاته، يوم 2020/2/16 الساعة 21:00 ليلا.

13 - لقاء شخصي مع الشيخ إبراهيم حميدانو بن لخضر أستاذ التعليم القرآني ومتقاعد، اللقاء بعد صلاة المغرب يوم 2020/2/28، على الساعة 19:15 مساء.

14 - المرجع نفسه.

15 - المرجع نفسه.

16 - لقاء شخصي مع الأستاذ عبد الرزاق دربال، يوم 2020/5/25 على الساعة 19:00 مساء.

17- لقاء شخصي مع الأستاذ عبد الرزاق دربال، يوم: 2020/5/13 على الساعة 21:00 ليلا.

18- المرجع نفسه.

19- المرجع نفسه. ولقاء شخصي مع الحاج طاهر دربال بن إبراهيم بن علي حفيد الشيخ - رحمه الله تعالى - 2020/4/22

على الساعة: 17:00 مساء.

- 20 - لقاء شخصي مع الأستاذ عبد الرزاق دربال، يوم: 20/5/2020 على الساعة: 12:25 زوالا.
- 21 - المرجع نفسه.
- 22 - لقاء شخصي مع الأستاذ عبد الرزاق دربال، مرجع سابق.
- 23 - لقاء شخصي مع الأستاذ بشير بوغزالة حمد، مرجع سابق.
- 24 - لقاء شخصي مع الأستاذ عبد الرزاق دربال، مرجع سابق.
- 25 - لقاء شخصي مع الأستاذ عبد الرزاق دربال، يوم: 28/5/2020، الساعة: 14:00 زوالا.
- 26 - المرجع نفسه.
- 27 - العامي: كئبان من الرمل يكون محيط بالنخل من الخارج ويشكل حدودا بين الممتلكات المتجاورة من النخيل، وأهل الاختصاص من الفلاحة يضعون العلامات التي تبين حد كل واحد حتى لا يتعداه، فإذا لم تكن معلّمة وقعت الخصومات والنزاعات بسبب ذلك .
- 28 - الملاوح جمع ومفرده ملوح، وهو المكان الذي يرمون فيه التراب الذي أخذوه من تحت النخلة أو من الغوط، ويكون بمثابة حد بين الأملاك.
- 29 - لقاء شخصي مع الشيخ إبراهيم حميداتو، مرجع سابق.
- 30 - المرجع نفسه.

